خلع عبد الحميد

تمهيد

كثرت مؤاخذة الناس لجمعية الاتحاد والترقي في هذه الايام ولاسيما بعد ان نشرت جريدة التيمس بياناً مسهباً قال مراسلها انهُ خلاصة ما اقرَّ عليهِ اعضاء هذه الجمعية في اجتماعهم السابق في سلانيك . وكان هذا المراسل قد اطلعنا على جريدة ذلك البيان قبل ان نشرتهُ جريدة التيمس باشهر فاستغربناهُ اشد الاستغراب وارتبنا في صحتهِ ولكن بقي اثر منهُ في نفوسنا لشدة وقعهِ ولانهُ ان كان صحيحاً فالجامعة العثمانية التي نحلم بها اسمٌ لغير مسمى

واتفق ان وقع لنا الآن كتاب لمؤلف انكليزي اسمهُ مكلاً موضوعهُ سقوط عبد الحميد جمع فيهِ اخباراً شتى مما وقف عليهِ بنفسهِ او مما اخبرهُ بهِ شوكت باشا او غيرهُ من الرجال الذين كانوا معهُ في خلع عبد الحميد واتقاذ الدستور . والكتاب يقع في اكثر من ثلثمئة صفحة كبيرة ولهُ مقدمة وجيزة بقلم شوكت باشا . فتصفحناهُ من اولهِ الى آخرهِ ولم نكد نأتي على صفحات قليلة منهُ حتى رأينا فيهِ ادلةً ساطعة على تبرئة جمعية الاتحاد والترقي مما نتهم بهِ ولو كانت اعمال بعض اعضائها تدلُّ على شيء من الطيش والتهور وقلة الاختبار . فرأينا ان نلخص بعض حوادثهِ وننشرها بما لدينا من مكاتبات مندوبنا الخاص في الاستانة وما وقفنا عليهِ من اقوال ثقات الاتراك بين في هذا الشان . وسنجعل ذلك فصولاً متوالية كالفصول التي كتبناها عن الاسكندر المكدوني او عن حرب القرم ووقعت وقعاً حسناً لدى جمهور القراء . وغرضنا ان نخص تاريخ هذه الحادثة مما علق بهِ من اوهام الكتاب واوضاع القصاصين

فُتح مجلس المبعوثان في السابع عشر من شهر دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٠٨ فخلعَ عبد الحميد مكرهاً بعد ان دفنهُ ثلاثين عاماً . خرج من قصرهِ يلدز بعد الظهر بربع ساعة في مركبة تجرها ستة من الجياد المطهمة وفي نصف ساعة بلغ الدار المعدة لاجتماع المجلس . ولم يقع لهُ في الطريق شيء مما كان يخشاهُ سوى ان امرأة ارمنية وقفت في طريقهِ وهي تصرخ وتقول ردَّ عليَّ ولديَّ . اما هو فلم يلتفت اليها لانهُ لو حاول رد كل من اهلك لاخطرَ ان يردَّ مئات الالوف

وكان النواب جلوساً في اماكنهم وهم من كل امة وشعب يمانيون وحجازيون وسوريون واتراك وروم وارمن وارناؤود وبينهم ثلاثون او اربعون من كبار العلماء والى يسار المجلس الاعيان بحللهم المقصبة ونياشينهم المرصعة وعلى القرب منهم جمهور من الباشوات والقضاة

والعلماء والمفتين . وفي الغرفة التي فوق مجلس السلطان رؤساء قواد الجيش وبعضهم شيوخ كلهم الشيب وامامها غرفة فيها وكلاء الدول بحللهم الرسمية . كان هناك البرنس مرزا رضا خان الشاعر الفارسي سفير ايران وقد اكثر في لباسه من الجواهر حتى جعل ازرار سترته من الماس . والدكتور ساردي النائب الرسولي يحلة من الارجوان وكثير من الباشين . واكثر السفراء باشين البارون مرشال فون بيبرستين سفير المانيا الذي كان لهُ الشأن الاعظم في السياسة الحميدية ولا عجب لانهُ اقدر الرجال على امتلاك الرجال وكان متقلداً اعظم الاوسمة التي ينعم بها السلطان والقيصر

وكان بين رجال الدين بطاركة المسيحيين على اختلاف طوائفهم الروم الارثوذكس والارمن الارثوذكس والارمن الكاثوليك والسريان القدماء والروم الكاثوليك والكلدان والسريان الكاثوليك والاكسرخس البلغار وباش حاخام اليهود

وفي الساعة ١ والدقيقة ١٥ اقبل اولاد السلطان الخمسة وهم عبد الرحمن وسليم وعبد القادر وحليم واحمد وجلسوا في مخدع ملاصق للمخدع المعد لابيهم وكانوا كلهم باللباس العسكرية . ولم يستقر بهم المجلس حتى نهضوا على اقدامهم واقتدى بهم سائر من في المجلس لان عبد الحميد دخل حينئذٍ فانتشرت هيبتهُ في النفوس ولا بدع لان عظمهُ يخفق فوق ثلاث قارات واربعة البحر من بحر الادرياتيك غرباً الى خليج فارس شرقاً ومن جبال كربانيا شمالاً الى ينابيع النيل جنوباً و يُخطب باسمهِ في مساجد ثلاثين مملكة . وكان نحيف الجسم محدودب الظهر شاحب الوجه مرتجف الركبتين يمشي متثاقلاً كأنهُ يجرُّ نفسهُ جرًّا وقلَّ ماشيًا الى ان وصل المخدع المعد لولي العهد ودخلهُ فاسرع اليهِ غالب باشا السر تشريفاتي واخبرهُ بحظوة هنيهة لابنه . ثم ادرك افراد وتقدَّم الى المخدع الاوسط المعدلهُ فدخلهُ ووقف بكتا يديهِ على قبضة سيفهِ وهو يميل ذات اليمين وذات اليسار كأنهُ يريح رجلاً بعد وقد بهر عينيهِ ذلك المنظر الرهيب ثم سلم على الحضور بيدهِ وحينئذٍ تقدم علي حيدر وتلا النطق السلطاني وهذه ترجمتهُ :

اعيان مبعوثان

منحت رعيتي القانون الاساسي حينما استويت على العرش ثم اوقفت العمل بهذا القانون بناء على ما عرضهُ علينا رجال الدولة في ذلك العهد لما تلوهُ من المصاعب في انفاذهِ الى ان يرتقي افراد رعيتنا في العلوم والمعارف . فتوقف انفاذ موادهِ وتأجل اجتماع المبعوثان الى زمن آخر

هيكل من خزف نصبي في دكين

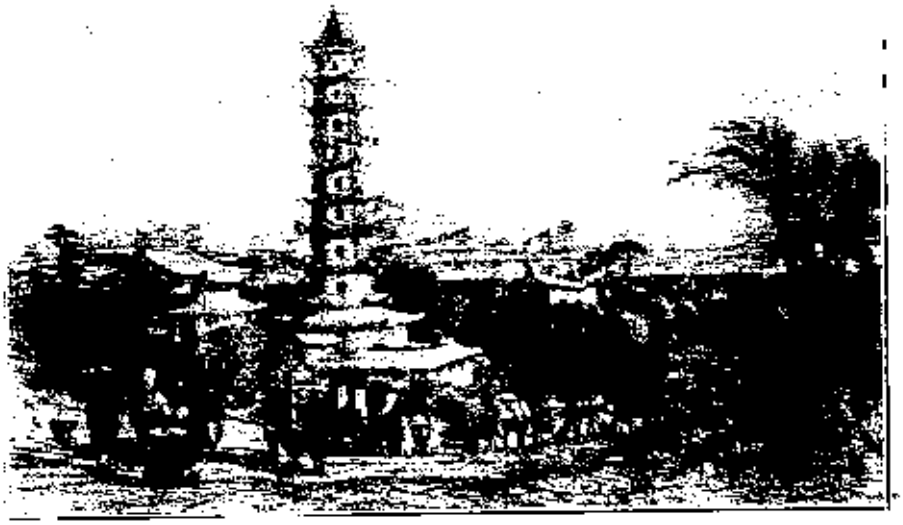

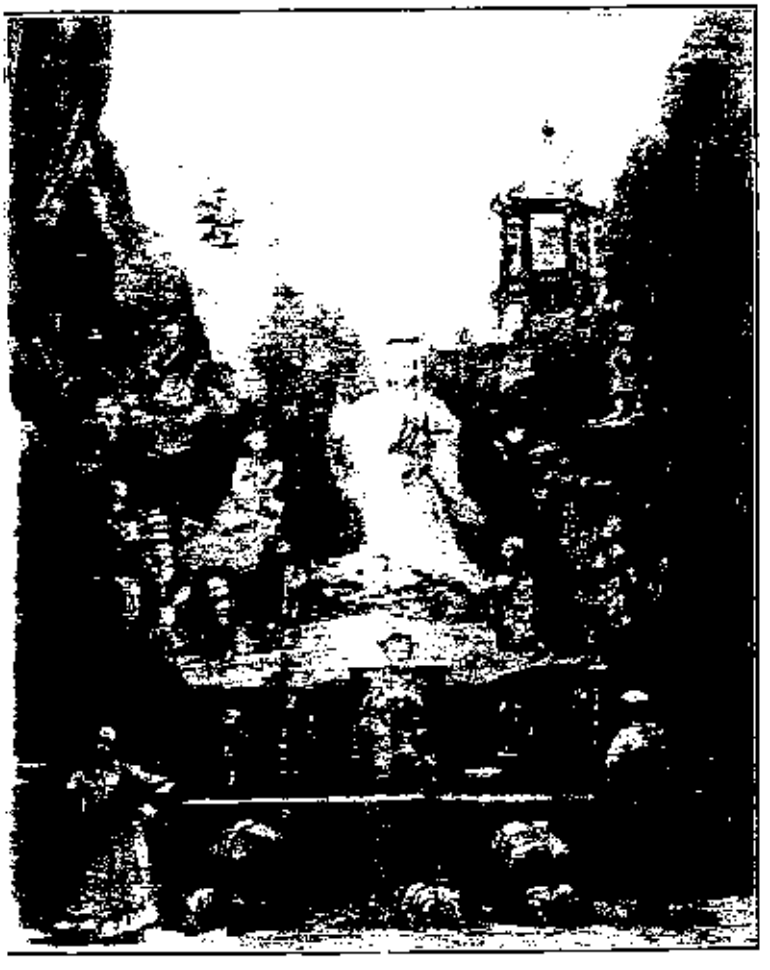

صورة صينية لمعبد البوذيين

« ومن ذلك الحين وقفتُ قواي على ترقية الرعية في المعارف في جميع انحاء السلطنة وقد بلغنا والحمد لله الغاية الآن . وبفضل انتشار المعارف ارتقت مدارك الرعية وبناء على الرغبة التي عرضت علينا في اعادة انفاذ هذا القانون لم نتأخر عن اعلان الدستور رغماً عن اعتراض بعض الذين عارضوا في ذلك . وذلك لان هذه الرغبة تضمن سعادة البلاد في الحال وفي الاستقبال . فامرنا باعادة الانتخاب وجمعنا مجلس المبعوثان مرة ثانية ولما تغير نوع الحكم الاداري عهدنا في زمام الادارة الى الصدر الاعظم كامل باشا . ولكن بينما كانت الوزارة المؤلفة برئاسته تشتغل بتنظيم الامور على النظام الدستوري الجديد نقض امير البلغار ووالي الروم ايلي حقوق التابعية لسبب من الاسباب واعلن استقلال بلغاريا واعلنت حكومة النمسا والمجر على اثر ذلك ضم ولايتي البوسنه والهرسك اللتين عهدت اليها ادارتهما موقتاً بموجب معاهدة مؤتمر برلين وابلغت ذلك الى الباب العالي والدول . وقد احدثت لي هاتان الحادثتان اللتان خرقتا معاهدة برلين وسمتا علاقاتنا الدولية اسفاً شديداً

« ولما خرقت هذه المعاهدات عهدنا الى وزارتنا في اجراء ما يجب دفاعاً عن حقوق سلطنتنا ونحن نطلب من مجلس المبعوثان ان يساعدنا في ذلك . ولما كانت صلاتنا الودية مع جميع الدول حسنة بتنا نؤمل ان هذه الدول تساعدنا على حل هذه المشكلات ونحن نرغب من صميم القلب في اصلاح المالية وتنظيم الميزانية وزيادة رفاه الرعية وزيادة عدد المدارس لانارة الاذهان ونشر المعارف واتمام ارتقاء نظام الجندية والبحرية واصلاح الدوائر المختلفة التي وضعت لها بعض النظامات . وستعرض هذه النظامات على المجلس ومجلس الاعيان للمصادقة عليها واملنا وطيد ان النواب يبذلون غاية جهدهم في هذا العمل . فنحن نعلن اليوم افتتاح مجلس المبعوثان ورغبتنا الوحيدة هي سعادة الامة ورفاهها وغايتنا الكبرى هي ان تدير البلاد بحسب القانون الاساسي بل هذا هو اقصى ما نودهُ . فسأل الله ان يوفق مجلس المبعوثان الى خدمة البلاد »

وقد سمع نواب الامة سلطانهم يقول في نطقه وقفتُ قواي على ترقية الرعية في المعارف في جميع انحاء السلطنة . وانهُ يرغب من صميم الفؤاد في اصلاح المالية وزيادة رفاه الرعية وزيادة عدد المدارس لانارة الاذهان ونشر المعارف . الى ان قال « ورغبتنا الوحيدة هي سعادة الامة ورفاهها وغايتنا الكبرى هي ان ندير البلاد بحسب القانون الاساسي بل هذا هو اقصى ما نودهُ » . سمعوا ذلك فصفقوا لهُ تصفيقاً حاداً كأنهم شاكرون مبتهجون . ولعلَّ نواب كل امة يصغون لعملهم ولو كان ملكهم مثل عبد الحميد الأمن خُصَّ بجرأة نادرة . وهكذا تتسلط الاوهام والاخادع

لما تمت تلاوة النطق السلطاني أطلقت المدافع من الفكنات والبوارج ووقف السلطان ليتكلم ويقال انهُ قال للاعضاء « اني مسرور جداً بوجودكم في هذا المكان اليوم واسأل الله ان يوفقكم الى خدمة سلطنتي السنية وادعو لكم من صميم فؤادي » . ولكن المستر مكلاً قال انا كنا نرى شفتيهِ تتحركان ولكننا لم نسمع كلمةً مما قاه بهِ . وسطعت الاستانة تلك الليلة كانها شعلة من نار وشمل السرور كل انحاء السلطنة وتغنت الشعراء بمدح عبد الحميد وتناسى الناس فظائعهُ الماضية

ولما ردَّ النواب على النطق السلطاني قالوا ان السلطان كان يعرف كفاءة الامة واستعدادها للعمل بالقانون الاساسي حينما اعطى الدستور اول مرة ولكن بعض رجال الحكومة احدثوا من المشاكل ما جعل مستقبل امة عظيمة ينقلب من الشيء الى ضدهِ فالحل مجلس المبعوثان على صورة غير موافقة للقانون الاساسي بوجه من الوجوه . اي انهم تطرفوا في المجاملة حتى نفوا عن السلطان الخطأ في حلهِ مجلس المبعوثان وحملوا تبعة ذلك لبعض رجال الحكومة وايدوا هذا بقولهم « أن الذين احدثوا تلك المشاكل الوهمية وخدعوا ذاتكم السلطانية لم يكتفوا بتجاوزهم احكام القانون الاساسي بل ادعوا ان الامة غير متحدة رأياً وطلبوا تأخير العمل بالقانون المذكور مستحقين بمدارك الامة »

ولم يكتفوا بذلك بل افرطوا في المجاملة حتى نسبوا الى عبد الحميد ما هو بريء منهُ وهو انهُ هو عرف السعادة العظمى التي ستتم بها الدولة والمملكة في الحاضر والمستقبل من تحقيق الآمال العمومية فاصدر امرهُ السلطاني بتجديد انتخاب المبعوثان ودعوتهم للاجتماع ترفيقاً لاحكام القانون الاساسي . ونسوا او تناسوا ان جمعية الاتحاد والترقي اجبرتهُ على ذلك او اوهمتهُ انها تنتزع الملك منهُ أن لم يفعل

الظاهر ان عبد الحميد سرَّ بهذا التملق فاراد ان يعامل النواب بمثلهِ لكي يكرروهُ لهُ فدعاهم الى وليمة فاخرة في قصرهِ وجلس في صدر المائدة والى يمينهِ كامل باشا الصدر الاعظم والى يسارهِ احمد رضا بك رئيس مجلس المبعوثان ولاطف المدعوين اشد الملاطفة وكان يصب الماء بيدهِ في كاس احمد رضا بك ولما انتهوا من تناول الطعام والحلوى وقف جواد بك باشر كاتب المابين وقرأ النطق السلطاني التالي

« يا حضرات النواب زادكم الله سبحانهُ غبطة وسعادة انني في الحقيقة ممتنٌ جداً هذه الليلة اذ جمعت هذه المأدبة وكلاء امتي العثمانية وتبعتي الشاهانية واعني انها جمعت كل رعيتي في هذا المساء وهذه الحادثة الميمونة حدثت لاول مرة على ما اظن في تاريخ دولتي

العلية . فابارك لكم واسأل الله ان يكرر امثالها عليكم . والفضل في هذا الاجتماع السعيد لقانون دولتنا الاساسي ادامهُ الله الى الابد فانهُ النور وادام مبدأهُ الجديد بالتبجيل

« تعلمون حضراتكم ان اول حارس للحقوق في السلطنة والمملكة والدولة الشورية هو الله ثم الامة ثم مجلس المبعوثان وبناء على ذلك فان وظيفتكم مهمة ومقدسة ايضاً فسعيكم وغيرتكم وقصدكم ونيتكم التي لها هذه الاهمية وهذه المزية العظيمة هي مطلوبي قطعياً . فاحكام القانون الاساسي ضامنة لهذه الحقوق المقدسة وكافلة لها بعناية الله تعالى . وكل رجل يخالف ذلك يكون اعدى عدو لي واشد خصم للخليفة فيكوني سلطاناً وخليفة اوكد لكم واوثقكم كل التأمين فليعنا الله تعالى في غيرتنا وسعينا الى سعادة وسلامة دولتنا وملتنا ووطننا المقدس »

فاختلب هذا الكلام عقول المدعوين حتى اقبلوا على يدي عبد الحميد يقبلونهما

ورب قائل يقول تُرى لو اخلصت حاشية عبد الحميد النصح لهُ من ذلك الحين فصاعداً او لو أحيط بحاشية من المخلصين للدولة والامة بحاشية لا تخدع سلطانها بل تحذره من الخطاء وترشده الى الصواب ألم يكن في الامكان ان يتغلب على طبعهِ و يقضي غاير عمرهِ في التكفير عما مضى من السيئات او على الاقل يدع مهام السلطة لوزرائهِ ونواب امتهِ ولا يعمل على مقاومتهم . هذه مسألة يصعب حلها ولعلَّ الاقرب الى المعقول ان من شبَّ على خلق وشاب يتعذَّر عليهِ الاقلاع عنهُ . ثم ان احاطتهُ بحاشية ليس فيها الاَّ كل مخلص امين ضرب من المحال وكان الاولى ان لا يتراجع باصلاح الحال اصلاحاً دائماً ما دام عبد الحميد على سرير السلطنة . ولكن لو كُلف بالتنازل من اول الامر لما كان للحكومة وجه ان تستعفي اموالهُ الكثيرة فكان يستعملها في مقاومتها وعلى ايديها فتفضي الحال الى ما افضت اليهِ ولذلك فالامر الذي وقع اخيراً كان لا بدَّ منهُ او من مثلهِ سواء كُلف بالتنازل او لم يكلَّف

ومن رأي المستر مكلاً ان عبد الحميد اوجس الشر من الجمعية حاسَّ انها لا بدَّ من ان تخلعهُ اخيراً او تقتلهُ لانها جعلت تفتش عن الذين كانوا السبب في السيئات الماضية وهذا التفتيش سيفضي بها اليهِ حتماً . مثال ذلك انهُ لما سئل نجيب باشا ملحمه عن تعذيب الارمني الذي قتل في مسألة التبلة قال انني فعلت ما فعلت مأموراً . ويقال ان الخاصة لعبد الحميد حاولوا خطف نجيب باشا ملحمه وتخليصهُ من يد الحكومة لكي لا يصل في التحقيق الى هذا الاقرار فلم يفلحوا لان الحكومة بذلت جهدها في حمايتهِ . وكانت محاكمتهُ الحلقة الاولى من سلسلة محاكمات تتلوها وكلها تفضي الى جمع المسؤولية على رأس عبد الحميد ومحاكمتهِ وقتلهِ واستصفاء اموالهِ فقال في نفسهِ اني ان لم اتقدَّ هؤلاء القوم تعشوني لا سيما وانت

بعض اعضاء مجلس المبعوثان جاهروا بالتنديد به فقال الدكتور رضا نور ان السلطان ابتزّ الملايين من اموال الامة واودعها البنوك فيجب عليه ان يردها الى الامة . واشار بعضهم الى السوق الخيرية التي جُمع فيها مئة وخمسون الف جنيه لتوزع على ارامل الجنود الذين قتلوا في الحرب بين الدولة العلية واليونان ولم يوزع منها شيء وقال ان المسأول عنها هو السلطان نفسهُ ولذلك لم يجسر احد حتى الآن ان يسأل اين ذهبت

واغرب من ذلك انهُ جمع لسكة الحجاز اكثر من ثمانية ملايين من الجنيهات الانكليزية تبرع بها المسلمون في كل اقطار المسكونة فتبرع مسلمو رنغون ومدراس ببلاد الهند باكثر من مليون ونصف من الفرنكات ومسلمو لكتو بسبع مئة الف فرنك وتبرع امير من امراء وادي الكنك بنحو مليون فرنك لبناء المحطة في المدينة المنورة . وهذه الثمانية الملايين من الجنيهات لم يوجد في الدفاتر منها سوى ٣ ملايين ٧٩٩ الفاً من الليرات العثمانية أُنفق منها ٢٧١٧٠٠٠ ليرة على مد الخطوط و ٣٠٠٠٠٠ على المركبات والعربات والباقي وهو ٧٠٠٠٠٠ ليرة لم يظهر لهُ اثر . فكل المفقود من تبرعات المسلمين والرعية العثمانية هو نحو ستة ملايين من الليرات العثمانية اي ان السلطان واعوانهُ انفقوا ثلث المال المجموع في طريقهِ واكلوا الثلثين

ولما أُلقي هذا البيان في مجلس المبعوثان صمَّت لهُ الآذان وتكلم الدكتور رضا بك توفيق كلاماً ثقيلاً اقنع السلطان ان مراد الجمعية التوصل الى خلعهِ ومحاكمتهِ واستصفاء اموالهِ . ومن رأي المستر مكلاً انها لم تكن تقصد ذلك قط . ويظهر لنا ان لاعتقادهِ هذا وجهاً معقولاً والاَّ تعذر علينا تفسير الصداقة التي اظهرها لهُ احمد بك رضا رئيس المجلس والاخلاص البادي في نصحهِ لهُ . ثم ان الجمعية اكتشفت سيئات كثيرين من الكبار في تقارير الجواسيس ولكنها اغضت عنهم كلهم على ما يظهر ولم تعاقب الاَّ افراداً قليلين من الذين كان لا بدَّ من معاقبتهم لانهم امسوا كالقذى في عيون الامة او لانها تخشى شرهم . غير ان كامل باشا قال لما كان صدراً اعظم في وزارتهِ الاخيرة انهُ اكتشف ان رضا بك ناظر الحربية كان يدبر التدابير لخلع السلطان فاذا كان اكتشافهُ هذا استنتاجاً مبنياً على حقائق مقررة لا على وشايات بعض الواشين بالجمعية فلا يكون عمل الجمعية مما تؤاخذ بهِ مؤاخذة كبيرة اذ قد اثبتت الحوادث التالية ان عبد الحميد كان متربصاً لها الفرص وعاملاً على اهلاكها وبعد عن الظن انها كانت تجهل ذلك . وقد اكد لنا بعض الثقات ان ساسة الانكليز هم الذين اشاروا على بعض اعضاء الجمعية ان يبقوا على عبد الحميد ولا يحاكموهُ لئلاَّ ينفر منهم ملوك اوربا . وسنزيد هذه الامور بياناً في الجزء التالي